

في البداية كان الكون مياه لا نهاية لها

بقلم
الأستاذ الدكتور
صلاح رشيد الصالحي
تخصص: تاريخ قديم
بغداد 2020



(وجعلنا من الماء كل شيء حي)

ان أصل الكون هو الماء، وما علية الآن من النباتات والحيوانات بكافة اشكالها واحجامها يعود أصلها الى الماء، وهناك اتفاق بين ما تطرحه الديانات الوثنية والسماوية بان الأصل الأول للكون هو الماء وفيما يلي نظرة الانسان في الحضارات القديمة والديانات السماوية حول الأرض ونشئها، وبالمناسبة أثبتت الدراسات العلمية ملاحظة تنص على (اذا بقيت درجات الحرارة في كوكبنا في الارتفاع فسيؤدي ذلك إلى ذوبان القطبين الشمالي والجنوبي) وعندها يرتفع مستوى الماء إلى ارتفاع (300) م حسب التقديرات العلمية، ومن ثم ستختفي مساحات شاسعة من اليابسة في الكرة الأرضية، ويمكن ان نطلق عليها آنذاك اسم (الطوفان)، ولكن رغم كل ما يحدث وسيحدث في المستقبل فان الجنس البشري لن يختفي عن سطح الأرض اطلاقاً، فالإنسان قادر ان يجد البدائل لاماكن عيشه، ويتكيف مع الظروف القاسية، ويفكر في الحلول لتحقيق امنه واستمراره في البقاء، لذا فهو قادر على الحياة وحفض سلالته في أي ظرف كان، على أية حال لنلقي نظرة عن أصل الكون كما ورد في المصادر التالية:

الأسطورة السومرية والبابلية: من أقدم الاساطير عن خلق الكون جاءت من العراق القديم، والكثير من علماء الآثار والتاريخ يؤكدون ان أصل الدين وتطوره كان في بلاد الرافدين، ولهذا يعلق الاثاري الفرنسي اندريه بارو بقوله: (ليس هناك اثر في بلاد الرافدين إلا ويكون ذات طابع ديني)، وهذا ينطبق على الأبنية الدينية والقصور الملكية، والنصوص والحواليات، والاساطير، والاختام المنبسطة والاسطوانية، والمنحوتات بكافة

اشكالها والتي تعود إلى كافة العصور التي مرت في تاريخ العراق القديم، وعند الحديث عن اسطورة خلق الكون التي وردت مدونة على ألواح سومرية وأخرى بابلية تتحدث عن خلق الكون وكيف خلقت السماء والأرض والنبات والحيوان وتقول الأسطورة:

(في البداية لم تكن هناك سماء ولم تكن هناك أرض، وكان الكون عبارة عن مياه لانهائية أو أزلية)، وكانت المياه مكونة من ثلاثة عناصر رئيسية: مياه عذبة يمثلها الإله ابسو (Apsu)، ومياه مالحة تمثلها الإلهة تيامة (Tiamat)، وعنصر ثالث هو ممو (Mummu)، واختلف الباحثون في تفسيره ربما هي المياه الكائنة في السحب والضباب واعتبر ممو وزير الإله ابسو، وأن الآلهة الأولى كانت هائمة بذاتها على وجه الماء فلم تكن هناك مقر لها لأن السماء لم تخلق، ثم قام الإله انليل (عند السومريين) أو الإله مردوخ (عند البابليين) أو الإله آشور (عند الآشوريين)، مهما يكن تمكن الإله انليل من قتل الإلهة تيامة وشطرها نصفين أحدهما كون السماء والنجوم والنصف الثاني كون الأرض، بمعنى خلق الطين الغرين من الماء وهذا دليل على تكوين اليابس بعد انفصال الماء المالح عن الماء العذب وهذا ضروري لقيام حياة نباتية وبشرية وحيوانية، وهكذا بدأت الحياة من الظلام والعدم والمياه المترامية الأطراف .

الأسطورة المصرية القديمة: يختلف الفكر الديني المصري القديم عن الفكر الديني السومري والبابلي اختلافا جذريا، وتعود أصول الفكر الديني المصري القديم إلى عصور ما قبل التاريخ، ولكنه تبلور في بداية العصر التاريخي، وتذكر الأسطورة المصرية القديمة: (في الماضي السحيق لم تكن فيه أرض ولا سماء ولا حس ولا حسيس وما من آلهة أو بشر وإنما عدم مطلق لا يشغله غير كيان مائي أزلي عظيم مع ظلام وبرد أطلقوا عليه اسم (نون) ظهر فيه روح إلهي أزلي عرف باسم الإله آتوم (Atum) الذي خلق نفسه، ولم يجد مكانا يقف عليه فوقف فوق تل ثم صعد فوق صخرة تدعى (بن بن) في (هليوبوليس) على هيئة مسلة رمز الشمس، ويعتبر آتوم أبو الآلهة جميعا وظل منفردا بوحدهيته حتى أخرج من ظله عنصرين أحدهما ذكرا تكفل بالفضاء والهواء والنور ويعرف الإله (شو) (الاسم يدل على صوت العطس الذي يصدر من الفم)، والآخر أنثى تكفلت بالרטوبة والندى وتعرف بالآلهة (تفنوت) (صوت الذي يصدر عن الفم إذا تفل)، وتزوجا وانجبا الإلهة (جب) وهي إلهة الأرض والإله (نوت) إله السماء، وتستمر الأسطورة بأن الإله (شو) فصل السماء عن الأرض وملأ بينهما الهواء والنور ولعل هذه الأسطورة تشابه اسطورة العراقية القديمة في خلق الكون، ويلاحظ أن (شو، وتفنوت، وجب، ونوت) هم عناصر كونية هي (الهواء، الرطوبة، السماء، الأرض)، وهكذا خلقت السماء والهواء والنور والרטوبة والندى ثم خلقت الأرض وملأ فيها الهواء والنور.

في التوراة (سفر التكوين): في البداية (كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلام وروح الله يرف على وجه المياه، وقال الله ليكن نور فكان نور..) (وفصل الله بين النور والظلام، وسمى الله النور نهارا والظلام سماه ليلا) ثم اعقبها خلق السماء والأرض والنبات والحيوان وفي اليوم السادس خلق الإنسان ذكرا وأنثى ... ورأى الله جميع ما صنعه فإذا هو حسن جدا، وكان مساء وكان صباح يوم سادس) واستراح الله في يوم السابع الذي يصادف السبت، ومن المعروف في الدراسات التوراتية أن كتبة التوراة أخذوا معلوماتهم من حضارة العراق خلال ترحيلهم إلى بلاد الرافدين في عهد سرجون الآشوري (722 ق.م) وخلال السبي البابلي الأول (597 ق.م) والسبي البابلي الثاني (587 ق.م) في عهد نبوخذنصر الثاني، فأخذوا الأساطير الرافدية ونقلوها بصيغة ثلاثم معتقداتهم ومنها أصل الكون المائي، وعمر الإنسان قبل الطوفان كان طويلا، وأن مدينة بابل أقدم مدن العالم... الخ

في الإسلام: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، خلق الله السموات السبع والأرضين السبع في ستة أيام: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام)، ويرى المفسرون أن

طول اليوم قد يكون ألف سنة، أو أنه بطول أيامنا الأرضية، مع نهاية اليوم الثاني اكتمل خلق الأرض، ومع نهاية اليوم السادس اكتملت تسوية البناء السماوي، وبعد تمام خلق السماء والأرض، خلقت المجرات والنجوم، في اليوم السابع: (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) كلمة استوى لها عدة تفسيرات منها (تربع) ومنها استلقى من كلمة الاستواء، ومنها انتهى من عمله كما نقول استوى الشيء أي نضج واكتمل، وبقلب الحروف بدل حرف (س) نضع حرف (ش) تصبح استوى من الشواء بمعنى نضج وانتهى والله اعلم، كما ورد في سورة الأنبياء الآية (30) قوله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) أي كل الاحياء منه، وإن الحياة على وجه الأرض سواء كانت حياة الإنسان، وحياة الحيوان، وحياة النبات، قوامها الماء، لأنه الوسيط الوحيد الذي يحمل الأملاح والمواد الغذائية منحلة فيه إلى الكائن الحي، ولولا الماء لما كان على وجه الأرض حياة.

النظرية العلمية: كانت الكره الأرضية (عمر الأرض قدر (4.5) مليار سنة ويعتقد ستنتهي الحياة على الأرض مع انتهاء الشمس كمصدر للنور والحرارة بعد 4 مليار سنة) يغطيها محيط واسع أطلق عليه اسم (تيثس) (نسبة إلى إلهة يونانية) ونتيجة للحركة الصفائح التكتونية بدأت تتسع اليابسة واخذت القارات تبتعد عن بعضها البعض ، ثم مرت الأرض بعصور جليدية وأخرى دفيئة أثرت على انتشار الإنسان والحيوانات فحسب العصور الجليدية (تتوسع اليابس بسبب انجماد مياه المحيطات في القطب الشمالي والجنوبي، فمثلا كان الإنسان في العصور الحجرية قادرا على عبور البحر المتوسط في المنطقة ما بين تونس وصقلية)، أما في العصور الدفيئة (تتقلص مساحة الأرض بسبب ذوبان المياه، فمثلا الخليج العربي كان منخفض طبيعي خالي من الماء في العصور الجليدية ثم أصبح مغمورا بالمياه في العصور الدافئة ما بين (18000-5000) ق.م)، ويعتقد ان منخفض الخليج العربي كان جنة خضراء يمر فيه نهري دجلة والفرات ليصل إلى مضيق هرمز، وأيضا كانت الحيوانات ترعى في ذلك المنخفض ومع تدفق مياه المحيط الهندي انسحب السكان شيئا فشيئا جيل بعد جيل حتى وصل الماء إلى المستوى حاليا ولهذا السبب فان اقدم اللقى الاثرية المكتشفة على سواحل غرب الخليج العربي تعود زمنيا إلى حضارة العبيد (4000) ق.م، وحتما الذاكرة البشرية لا تنسى اتساع المياه الذي غطى عالمهم المعروف آنذاك فدمجوا مجموعة اساطير مع بعضها البعض اسطورة أصل الكون المائي، واسطورة الطوفان، والجنة، والأخيرة هي دلمون التي يعتقد بانها (البحرين) في النصوص السومرية، وحتى رحلة كلكامش من اجل لقاء جده اتو-نبيشة بطل الطوفان كان عليه ان يعبر بقاربه البحر المر (البحر السفلي) أو (الخليج العربي).